

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163 -1112 العدد 17 (2012) : 109 - 115
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

القرآن والمعرفة الغربية: نحو التأصيل للعلاقة بينهما

هشام زرقة لطفي
قسم علم الاجتماع جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

مقدمة:

في خضم الحضارة المعاصرة يعترض حديثنا عن القرآن سؤال مفروض، هو سؤال القرآن والمعرفة المعاصرة، فلا يمكن فصل هذا النص عن الحاضر، ولا جدوى من محاولة الانغلاق على الذات الإسلامية والاستغناء عن منتوج فكري هو إنساني قبل أن يكون شرقيا أو غربيا. إننا بدأ نسلم بفكرة أن أي إثراء أو تفعيل للنص، من خلال أي توجه إبستيمولوجي، يعتبر شيئا إيجابيا للنص يجعل منه مركز اهتمام وبحث، ويخلق حوله ديناميكية تعدد الخطابات والمحاولات وهي ذاتها أول الطريق نحو بناء وتأصيل رؤية للعالم من خلال القرآن. إن البعد الرّسالي للقرآن من جهة أنه رسالة لتقرأ وتفهم وتعاش وليس "مقدس الأقراح" يسمع في الجنائز ويتبرّك به الأولياء. لقد حَجّبَت قداسة هذا النص التفاعل الحقيقي للإنسان معه، وتمّ تقييد العمل عليه بمعايير مؤسساتية وإستبعد بذلك من مركزيته في الرؤية الإسلامية ذاتها.

منطلق التفكير في أساس في العلاقة بين القرآن والمعرفة الغربية:

إن الحديث عن العلاقة بين القرآن والمعرفة الغربية قبل أن يكون حديثاً عن تفاصيل ومعايير هذه العلاقة هو حديث عن طبيعة المشروع الفكري الذي يُناقَش داخله هذا الإشكال والمقصد منه. إن المشروع الغربي يعتبر القرآن أحد موضوعات الدراسة مثله في ذلك مثل الموضوعات الأخرى، يختبر من خلاله نظرياته وقدراتها التفسيرية في سياقات غير سياقات نشأتها. من هذا المنطلق، يأتي الرهان الأول متعلقًا بالمعرفة الغربية كأساس لرؤية الغرب للعالم.

إن المنطلقات العامة، الخلفيات الإيديولوجية والمسلمات الأساسية التي تحدد حقل التفكير الغربي في القرآن تحدد، بطريقة ضمنية، سقف النتائج المنتظرة L'horizons d'attente من مقاربة القرآن عندما تقارب نظرية ما. القرآن كموضوع من موضوعاتها تبحثه لتجد فيه منطقاً (نظام علاقات، دلالات معيّنة، تأويلات...) لا يرقى إلى منطق بناء النظرية ذاتها التي تباحثه.

في مقابل ذلك، تأتي نظرتنا للقرآن من داخل منظومتنا الإسلامية. إنها وجهة نظر مختلفة تماماً عن الأولى، ليس القرآن فيها موضوعاً مثل غيره من الموضوعات، وليس الرّهان هنا رهان نظرية أو نموذج، وإنما رهان رؤية للعالم، أساسها الحيوي القرآن ذاته. إن تسمية القرآن، والتفكير فيه من خلال كلمة "موضوع" قد تُخلّ بما نقصد إلى تبيينه، لِما قد تتضمنه هذه "الكلمة" من سلبية وتقبُّل لما قد تفرضه "الذّات المتفاعلة" معه. لا يكون القرآن، في هذه الحالة، موضوعاً وفقط، وإنما:

- أولا موضوعاً للمعرفة الغربية من خلال تصوّر معقد ومشروط.
- وثانياً تصوّرًا كونه موضوعاً ضمن صيرورة تحوّله إلى رؤية، الهدف منها تجاوز التصور الموجود اليوم في المعرفة المعاصرة، وكل ما يقتضيه ذلك من تغير في منطق مسائلتنا للعالم ومن فلسفة يمكن أن تنتج عن ذلك.

غالبا ما يشوب الغموض والتّسرّع الحديث عن

القرآن والمعرفة الغربية، وتناقش العلاقة بينهما بطريقة كلّية وغير محددة، خاصة إذا ما تعلّق الأمر بالجِدالات التي تنشأ داخل منظومتنا الإسلامية، فيأخذ الأمر بمجمله سواء بالرفض أو القبول. سبق وأن حددنا طبيعة المشروع الفكري الذي نناقش من خلاله العلاقة بين القرآن والمعرفة الغربية، يبقى أن ثمّة بعض التوضيحات التي تفرض نفسها عند الحديث عن المعرفة الغربية.

- أولها: أن هذه المعرفة متنوعة من حيث الوقائع الإبستمولوجية المندرجة داخلها، فعلى الرغم من التركيز حول موضوع النظرية، إلا أن الحديث عنها إنّما يأتي من باب الحديث عن الخاص، الذي لا يعبّر بالضرورة عن العام. إن سجل مفردات الوقائع الإبستمولوجية يحفل بعدد لابأس به من الاصطلاحات مثل الإبستيمي L'Epistémé، النموذج Paradigme، النظرية، المقاربة، المنهج، المفهوم، التقنية...

إن التفكير في مضمون العلاقة الممكنة بين القرآن والمعرفة الغربية يتأثر بهذا التّنوع، ويصبح الأمر أكثر تعقيدًا بحيث لا نتحدث عن العلاقة بالمفرد بل عن العلاقة بالجمع، حيث تحتاج كل واحدة منهما إلى دراسة. وينفتح المجال على احتمالات كثيرة تتراوح ربّما ليس بين نقيضي الرفض والقبول، وإنما بين إمكانات القبول المشروط لهذا المفهوم والرفض النّسبي لهذه النظرية، والتجريب الحَذِر لهذه المقاربة.

- ثانيها: أن هذه المعرفة تنتظم وقائعها بطريقة معقدة، وضمن حيوية نقدية داخلية، فمن الخطأ تصوّرها كبناء واحد متجانس وجامد، بل يجب تمثّلها كخطابات وخطابات مضادة، تجد فيها التّعارض الذي قد يصل إلى التناقض، وهذا ما يجعل هذه المعرفة ثرية ومفتوحة ومتجددة. ترافق القرآن في علاقة بالمعرفة الغربية هذه الحيوية ذاتها التي تفتح أمامه إمكانات معرفية ليست مطلقة، وإنما تقدم كل واحدة منها نفسها كواحدة من بين احتمالات متعددة.

<u>القرآن والوقائع المعرفية الأساسية:</u>

من خلال تحديد طبيعة الموقع الذي يتموضع داخله القرآن باعتباره أساس مشروع فكري، وكذا منطلقي التفكير في أساس العلاقة بين القرآن والمعرفة الغربية، نذهب إلى تفصيل مضمون هذه العلاقة من خلال مُسائلة تحليلية لثلاثة وقائع معرفية أساسية: الإبستيمي Epistémé، النظرية و أخيرا التقنية.

أ- الإبستيمي: ظهر مفهوم الإبستيمي في ستينات القرن الماضي مع "ميشال فوكو Michel Foucault "، وبالتزامن معه أسّس "توماس كوهن Thomas Kuhns" لمفهوم "النموذج Paradigme"... عند حديثه عن الإبستيمي. يعرفه "ميشال فوكو" بأنه "كل ظواهر الربط بين العلوم أو بين مختلف الخطابات العلمية التي تشكل، ما أسميه، إبستيمي حقبة معينة"[1] . وإجابة عن الانتقادات التي وجهت إليه حول اعتبار الإبستيمي كنسق مغلق، متجانس وأحادي، يضيف "فوكو" شارحاً ومفصلاً طبيعة هذه الواقعة قائلا "الإبستيمي ليس شكلا من النظرية الكبرى المضمرة، إنه فضاء للفروق Dispersion، أنه حقل مفتوح[...]، أنه ليس جزءًا من التاريخ المشترك لكل العلوم، إنه لعبة Simultané de «rémanences » spécifiques"[2].

لنا أن نلاحظ هنا، أن هذه الواقعة تتميّز بالعموم والانفتاح، ومضمونها متنوّع وغير متجانس، فهي لا تفرض رؤية واحدة للأشياء، وإنما تقترح إمكانات مختلفة وثرية. ليس الإبستيمي أمرا واضحا وواعيا يمكن تحديد موقف منه، وإنما جانب عميق وغير واع في الرؤية الغربية للعالم. مما حدى بالعديد من الحقول المعرفية الغربية كالتاريخ، الفلسفة، الأنثروبولوجيا تكثّف بحوثها لهكذا مستوى قاعدي ومؤسّس للمعرفة، وتحاول استكشافه واستجلاء أواليات اشتغاله.

إنّ ما يقابل "الإبستيمي" في التراث الفكري الإسلامي، ساحة منه شبه فارغة هي بمثابة "حلقة الوصل" المفقودة بين العقيدة وتفاصيل المعارف، حول الطبيعة والإنسان، فلا علاقة مثلا بين "مبدأ التوحيد" في العقيدة ونظرتنا لتنوع موجودات هذا العالم، وما قد يترتب عنه من روابط وتماثلات خلقية بين هذه الموجودات. عدا ذلك يبقى العمل على القرآن يمر، لا محالة، من خلال التعامل مع الرؤى الكلية لمنظومة الغربية بطريقة واعية أو غير واعية، ولا

مجال للقول أن تفكيرنا في القرآن سيضحى إعادة إنتاج لذات هذه الرؤية واشتقاقاتها.

قد يحدث بعض ذلك، ولكن أمثال هذه الخطابات مدعاة لإعادة إنتاج "فكر عقيم" وطريق إلى "الشّلل الفكري". إن الدّارس للقرآن بحيادية وإنصاف يرى أن التعامل مع هذا "النص" هو من قبيل الحوار والجدل معه، فهو ليس مادة سلبية خاضعة، بل له دور فاعل في تحديد التّوجهات البحثية، بدأ بالاصطلاح المستعمل إلى البنية النصية، والطريقة التي تنتظم بها الدلالة. من هذا المنظور يصبح القرآن محور إنتاج مراكز الاهتمام والأسئلة، وحتى طرائق التفكير في موضوعاته.

إن لكل من "القرآن" و"الإبستيمي" ديناميكيته الخاصة، ولكنهما -الاثنان-يصبّان في اتجاه تفعيل العمل على القرآن. إن الإبستيمي في خلال تطوره يسمح بإرتداد للوعي والنقد، على ذاته ومنطلقاته، من خلال ذات المعارف والأدوات التي أنتجها، وهو أمر مفيد، للمشتغل على "القرآن"، من حيث الحذر الذي يمكن توخيه، ذلك أنه كلّما زاد وعينا بمنطلق الرؤية الغربية ومنطقها، كلما إستطعنا تحديد موقفنا منها. من جانبها "ديناميكية العمل على القرآن"، حتى وإن تشابكت مع الرؤية الغربية، فإنها من خلال تبلورها تظهر شيئاً فشيئاً الرّؤية القرآنية، وكيفية تفكيرها، وهذا الأمر هو كذلك من محددات موقفنا من الإبستيمي.

إن الديناميكيتان كلّ في عملها سواء تلك التي تمكن من مراجعة الذّات الغربية، أو تلك التي تحدد ملامح رؤية جديدة من خلال القرآن، تتجهان إلى الإلتقاء والتقاطع في تحديد العلاقة القائمة والمفروضة بين القرآن والمعرفة الغربية.

ب-النظرية: عندما ننتقل في حديثنا من الإبستيمي إلى النظرية ننتقل من المفتوح إلى المغلق، ومن المتنوع الغير متجانس إلى الأحادي المنظم. يرى "أ. أينشتاين A. Einstein " أن الهدف من النظرية هو ربط عدد كبير من التجارب المعزولة. ويعرفها بأنها "نسق من أفكار التي غالبا ما تبنى منطقيا من خلال عدد قليل من القضايا الأساسية"[3]. إن النظرية تقدم رؤية منظمة لموضوع ما، إنها محاولة للتعميم بحيث لا يشذّ أي مثال أو"تجربة معزولة " من الرؤية العامة التي تقدمها.

كما يتفق أغلب الباحثين العاملين على الموضوع من أمثال "دوركايم Durkheim" و"قرونجر Granger " أن أساس النظرية _عدد قليل من القضايا الأساسية، فهي بذلك الرهان الأول والأصعب في النظرية. عند وجودها لا يبقى إلا تمثلها في نسق علائقي بما تقتضيه العلاقة من ضوابط منطقية ورياضية.

أما السلطة التي تملكها النظرية في المعرفة المعاصرة فتستمدها من مبدأ إبستيمولوجي ضمني يحكم بأولوية العقلاني على الواقعي وأسبقيته في إنتاج المعرفة فبالنسبة لـ"غاستون باشلار G. Bachelard " يتجه الشعاع الإبستيمولوجي من العقلاني إلى الواقع وليس العكس"[4]. من هذا المنطلق يبقى الواقع (الموضوع) في موقف سلبي، فهو لا يجيب إلا إذا تمت مساءلته. وتنفرد النظرية برهان المعرفة الأول والأخير، ليس فقط رهان السؤال وإنما كذلك رهان الجواب، ذلك أن التفسير المقترح لموضوع ما لا يكون إلا من جنس سؤال النظرية. عند حديثه عن الموضوع يشرح "روني طوم R.Thom " عمل الفعل العقلاني باعتباره "اختصاراً للوقائع في موضوع محلي بقصد تفسيرها بشكل فكري"[5].إنه من جهة ما، إنتقاء للخاص، وصياغته بطريقة عقلانية، وتعميم هذه الرؤية لبقية الوقائع الأخرى.ضد هيمنة النظرية تأتي أصوات معارضة محاولة التأكيد على الدور الفاعل للموضوع و"حقه في الرفض" على حد قول "جون كلود باسرون J.C.Passeron"، فعند حديثه عن التفكير السوسيولوجي يقول "حق الوقائع في أن تختار، من خلال التفكير السوسيولوجي، من بين كل النظريات تلك التي تسهل وتعدد لغتها الفرص التقنية والاستدلالية للاعتراض عليها من خلال الملاحظة"[6].

أضف إلى ذلك، أن الممارسة البحثية في العلوم الاجتماعية والانسانية اليوم تفتح احتمالات عدّة للتّعاطي مع موضوعتها، ولا تتقيد بالضّرورة بخيار النظرية، أو قد تنتقي منها مقولات أو مفاهيم، وتستبعد

أخرى، فهي قد تتعامل مع النظرية ليس كوحدة، بل كعناصر مترابطة، يمكن فصلها واستعمال البعض منها بحسب طبيعة الموضوع، ومتطلبات البحث.

إن دراسة محققة وجادّة في "الإبستيمولوجيا الجهوية" لحقل العلوم الاجتماعية والانسانية كما يسميها "باشلار" يمكن أن يبين ربما التنوع والاختلاف الذي قد نجده فيما نصطلح على تسميته بالنظرية، فقد يكون منطق بناءها وما تقتضيه من شروط العلمية وخصائصها غير مطابق تماما، لما هو عليه الشأن في حقول معرفية أخرى.

ليس الهدف من مناقشتنا لواقعة النظرية في المعرفة المعاصرة الفصل في خلاف إبستيمولوجي فذلك بعيد المنال، وإنما نقصد إلى تحديد طبيعة العلاقة بين القرآن والنظرية، ونتصورها في أمرين إثنين: **أولهما:** إعطاء الأولوية في العمل على القرآن "للممارسة النّصية" بوعي معاصر، باعتبارها علاقة مباشرة وعميقة مع النص. ونقصد بالممارسة النصية هنا فعلا فينومينولوجياً (Acte Phénoménologique) يتمثل في "حدس مباشر، عام وتجريبي"[(7)] يحدد طبيعة المواضيع ومكوناتها، ووجهة نظر لمسائلتها، تكون كلها مستقاة من تفاعل مكثّف مع النص. إن هذا الفعل الفينومينولوجي يصدر عن ذات واعية، تبحث في دلالات نصي، من خلال ذهنية تعبر عن تجربة الإنسان مع العالم وتعريفه له، إنها تجربة بالضرورة حديثة ومعاصرة، بكل ما تحمله هذه الكلمات من معان عميقة.

ثانيهما: إن علاقة القرآن بالنظرية هي علاقة برؤية ممكنة، ضمن حقل متنوع، يتمتع بحيوية نقدية داخلية حقيقية. إن معيار ومحدّدات التعامل مع النظرية تأتي من ذات الممارسة النصية (على شاكلة ما يفعل "باسرون" مع الظاهرة السوسيولوجية باعتبارها الحكم والفيصل)، وبذلك تنفتح علاقة القرآن بالنظرية على الإمكانات التالية:

1- رفض النظرية لتعارضها الظاهر مع الممارسة النصية.

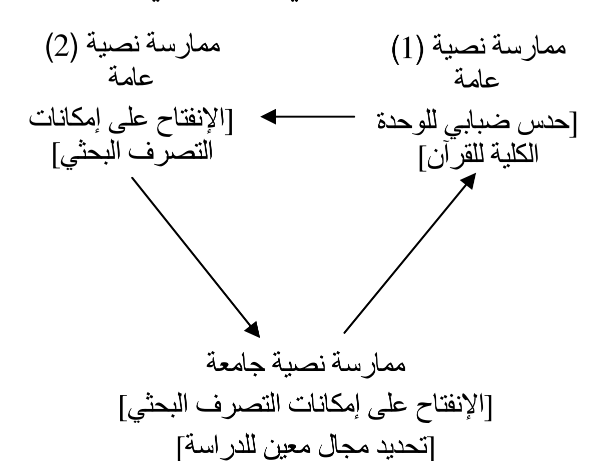
2- استبقاء النظرية لتجاور الممارسة النصية وتُثرِيها، أي التعاطي مع النظرية ليس باعتبارها سلطة معرفية، وإنما وجهة نظر ممكنة للموضوع، يمكن أن تحقق قيمة بحثية Valeur heuristique. إن ثمة اختلافاً ظاهراً بين الاعتماد على النظرية ومحاولة تطبيقها واختزال النص إلى مجيب عن سؤال النظرية، وبين استلهام القدرة التفسيرية للنظرية في عمومها، وداخل إطار رؤية تفرضها الممارسة النّصية من خلال الأسئلة المنبثقة من النص. إن القضية هنا هي قضية ما نعتبره مركزياً وما نعتبره ثانوياً. إن عملية البحث لا تخلو من الأحكام المسبقة والإيديولوجيات الواعية أو الغير واعية، وهذا ليس مبرراً للتّخلي عن النظريات، وإنما التّفاعل الدائم مع النظرية يساهم في تشكيل وعي نقدي يتبلور من خلال تفكير الباحث وممارسته التقنية.

3- استعمال أجزاء من النظرية (مقولة، مفهوم،...) وإدراجها ضمن بناء عام غير بناء النظرية، شريطة تحقق شرط الانسجام، بين ما نستفيد منه من النظرية كأجزاء منفصلة وبين الرؤية المرتكزة على الممارسة النصية.

القرآن والتقنية:

سبق أن أكدنا على الأهمية التي تكتسبها "الممارسة النصية" في العمل على القرآن باعتبارها المصدر الأول للتفكير في النص، وهي بهذا تكون الحكم الأول إذا ما تعلق الأمر بالمعرفة الغربية. إن الحديث عن الممارسة النصية يحتاج إلى شيء من التفصيل، يمكن من خلاله أن نتبين العلاقة القائمة بين القرآن والتقنية. إن أحد الإشكالات الأساسية المتعلقة بالممارسة النصية هو كون القرآن "وِحدة سردية" كلية ومعقدة، واستجابتنا لهذه الواقعة النصية المميزة يكون من وجهين، فمن جهة نسلّم بأن التفكير في القرآن يبدأ منه كما هو، باعتباره منظومة علائقية معقدة، وانتظامه بهذا الشكل الدّال، مثلما أن انتظام الوقائع كما هي في العالم دالة بذاتها، وينتهي إليه كما هو في آخر المطاف. إن الممارسة النصية، من هذا المنظور، هي حدس لأنماط البناء النصي في عمومه، وما قد يتشكل منه هذا البناء من تحديدات موضعية وأنساق علائقية.

ومن جهة أخرى نعتبر أن اعتماد طريقة التعامل مع القرآن في كليته، وبشكل مباشر لا تكفي، فالممارسة النصية العامة قد تحجب عن الرؤية خصوصية جزئيات النص و أهميتها والتي بدورها تحدد الرؤية الكلية بشكل أفضل. أضف إلى ذلك، أن انفتاح الممارسة النصية على إمكانات التصرف البحثي في النص(*) مثلما يفعل التفسير الموضوعي عندما يجمع عدداً من الآيات، وكيف يتشكل من خلالها موضوع للدراسة، أو كما تفعل بعض الدراسات من تتبع الإستعمال القرآني لمفرداته وملاحظة خصوصيتها، هو حلقة الوصل بين القراءة الحدسية الأولى للقرآن، وما قد تنتهي إليه من رؤية كلية وتفصيلية، في نفس الوقت، لموضوع من موضوعاتها ويمكن تلخيص هذه الفكرة في الشكل التالي:



مراحل الممارسة النصية

يأتي الحديث عن التقنية عند الحديث عن المرحلة الوسطى التي يمكن تلخصيها بقولنا: هي ممارسة نصية منفتحة على إمكانات التصرف البحثية، وهذه الإمكانات تتحقق من خلال التقنية، فهي بمثابة الأداة التي تساعد على الولوج إلى مستوى من المعرفة، لم يمكن ممكنا نيله إلا من خلالها.

ولتبيين ذلك نقدم نقداً لإحدى المحاولات التقنية للعمل على القرآن، ففي ستينات القرن الماضي قامت مجموعة من الباحثين الفرنسيين(**) بتكوين أداة بحثية حول القرآن تسمى "بالتحليل المفهومي للقرآن Analyse conceptuelle du Coran، وهي عبارة عن سجل للأوراق المثقوبة بالإضافة إلى (1) شفرة (2) تعليقات، هناك 430 سجل، كل واحد منها عبارة عن مفهوم، والثقوب الموجودة على ورقة كل مفهوم تحيل كل واحدة منها إلى آية من القرآن، من أمثال المفهوم مثلا الموجودات الخارقة (ما بعد الطبيعة) (D) الله (D1) القوى عموماً (D2)، الآلهة الأخرى (D3)، الملائكة (D4)، الشياطين (D5)، الجن (D6)]ملاحظة: كل من D وD1... هي شفرات هذا المفهوم[. يستعمل هذا التحليل المفهومي بطريقة تقنية ومنظمة ويسمح بمقاربة النص من خلال تصرف بحثي يحدد محاور عامة وأساسية لـ"الفاعلين" و"الموضوعات" ويبين التفكير فيهما من خلال توظيف مختلف الأوراق المثقوبة (المعبرة عن الآيات) والربط فيما بينها.

إن هذا النوع من المحاولات يفتح آفاقاً جديدة للممارسة النصية غير أن ثمة ملاحظات حول مثل هذه الطريقة التقنية في العمل على النص منها :

(1)إن تكوين مفاهيم التقنية يخضع إلى معايير ليست بالضرورة متوافقة مع الإستعمال النصي، فالمثال أعلاه حول موجودات ما بعد الطبيعة، هناك مساواة بين عناصر نصية مختلفة في مكانتها، في ثراء أو قلة استعمالاتها، وكذا أهمية دلالاتها، ووضعها في مجموعة واحدة. مثلا الإستعمال النصي حول "الله" مركزي جدًّا في القرآن وتتولد عنه دلالات أساسية في الرؤية القرآنية، بخلاف الإستعمال النصي للآلهة الأخرى أو للملائكة، الذي يأتي قليلا وغير محوري في بناء الرؤية القرآنية.

(2)أن العلاقات بين هذه المفاهيم تُبنى بطريقة تقنية عوض أن تبنى على تماسك السرد القرآني ومنطق الترابط بين وحداته، فالعلاقة بين مواضيع النص هي كذلك موضوع نصي يحتاج إلى دارسة وبحث.

جاءت هذه التقنية لإرساء أسس ممارسة نصية مجدّدة في وقت لم يشهد فيه العالم بعد الثورة الإعلامية والحاسوبية وما رافقها من تقدم هائل. لقد فتحت هذه الثورة المجال أمام سائر العلوم لاكتشاف إمكانات

بحثية متعددة، واستعملت، من بين ما استعملت، محركات البحث التي تمكن من التعامل مع المعطيات بطريقة أكثر نجاعة من جهة توضيحها، تجميعها وإظهار العلاقات الموجودة بينها تسهيلا لتحقيق الوظائف البحثية المطلوبة.

إن ثمة ذهنية جديدة ترافق هذه الثورة هي أبعد ما تكون عن الذهنية التراثية. إن استحضار مختلف استعمالات مفردة في القرآن يتم الآن من خلال محركات بحث بسيطة وفي وقت قياسي، سمح ذلك لبعض الباحثين كتابة معاجم لكل مفردات القرآن بمختلف استعمالاتها وكذا تحديد مواقعها(*)، الشيء الذي استحال على المفسرين فعله ولا عجب في ذلك فالتقنية هنا مستحدثة.

إن هذه المعاجم هي أدوات بحث مفيدة جدًّا، خاصة إذا ما استعملت في مقاربات مقارنة فمثلا كلمتي "كتاب"و "قرآن" تأخذان في التفسير القديم دلالات متقاربة جدًّا تصل حدّ التّرادف، لكننا إذا عمدنا إلى تقنية محركات البحث، وألقينا نظرة على المفردتين في المعاجم المفهرسة، ووضعنا استعمالات المفردتين جنبًا إلى جنب، نرى بوضوح إختلاف الإستعمال القرآني للمفردتين وعدم اشتراكهما، إلا في بعض الأوصاف العامة. يبقى أن هذه المعاجم تقدم استعمالات مفردة في القرآن مفصولة عن سياقات ورودها، وتحتاج إلى عمل معقد حتى ترتبط الكلمات مع بعضها في نسق علائقي داخل السرد القرآني.

إنّ المثالين اللّذين قدمناهما يبيّنان من جهة أهمية الجانب التّقني في الممارسة النصية، باعتبار أنه يمكّن من إنتاج معرفة جديدة حول النص (دلالات، علاقات...)، لم تكن ممكنة بدونه. إن رهان التقنية هنا رهان كبير، فغالباً ما يسبق التّجديد التّقني والإنجازات الكبيرة في هذا المجال الثورات العلمية الكبرى. من جهة أخرى تجدر الإشارة إلى أن التقنية ليست بالضرورة أداة حيادية، وإنّما تبنى على رؤية واعية أو غير واعية، تحدّد طريقة اقتطاع المادة النّصية إلى وحدات الدالة، تراتبية الموضوعات وطريقة تجميعها، وما إلى ذلك من آليات ومعايير العمل الخاصة بها.

ومنه يمكن القول أن الممارسة النّصية تعتمد بالضرورة على التصرفات البحثية الناتجة عن التقنية، شريطة ألا تتعارض مع اِنتظام السَّرد القرآني كوحدة كلية، فمنه تبدأ الممارسة النصية وإليه تنتهي، وأن يبقى هو المرجع الأول في العمل التقني. إن ما نقوله هنا ليس أمرًا يسير التحقيق و إنما هو علاقة جدلية معقدة بين تقنية ونص يمكن أن تسير، في أحسن الأحوال، إلى تحقيق تقنية معقدة للعمل على القرآن تتوافق معه ويكون أساس الرؤية فيها اِستلهاماً عاماً من الممارسة النّصية الحَدَسِية ذاتها.

الخاتمـة:

نخلص مما سبق، بعد مقاربتنا للعلاقة بين القرآن والمعرفة الغربية إلى التأكيد على طبيعة المشروع الفكري الذي نقصد إليه، مشروع للقرآن كنص مُؤَسِّس لرؤيتنا للعالم، وليس موضوعاً فقط من موضوعات المعرفة الغربية. رغم ذلك يعتمد ارتقاء فهمنا للقرآن لا محالة على التعامل مع المعرفة الغربية في كل وقائعها الإبستمولوجية (الإبستيمي، النظرية والتقنية). فلا مناص من ذلك، و إلا بقينا حبيسي نظرة تراثية للنص بكل ما تحمله من سلبيات ومعوقات.

إن التعامل مع المعرفة الغربية يعتمد، في رأينا، على مقولة أساسية هي مركزية الممارسة النّصية والمباشرة مع القرآن، وهامشية المعرفة الغربية بالنسبة لذلك، فالعلاقة المباشرة مع القرآن هي مورد الاهتمامات، الأسئلة ومنطق التفكير اللاّزم إبداعه للتأسيس لرؤية قرآنية للعالم. إن العلاقة مع المعرفة الغربية هي علاقة اِنفتاح وحوار، وربما علاقة اِستفزاز واِستثارة من الجانبين.

الهوامش:

1- Michel Foucault, Les problèmes de la culture, Un débat Foucault- Preti : Il bimestre n°22-23 Septembre /Décembre in Vocabulaire des philosophes, Ellipses 2002 p868.

2- Ibid, p869 - 870

3- Ibid

4- P. Bourdieu, Le métier du sociologue, paris ed.mouton, 1983, p62

5- J. Hamel, Précis d'épistémologie de la sociologie, Montréal – Paris, L'Harmattan 1997, P43

6- J.C. Passeron, L'espace mental de l'enquête(II), Revue Enquête, n°3, 1996, p1.

7- Alex Mucchielli (Sous la direction d'), Dictionnaire des méthodes qualitatives en sciences humaines, 2ème édition Armand Colin, 2004, p191

(*) نقصد بالتصرف البحثي عملا تحليليا على القرآن من خلال الوسائل المنطقية والمنهجية المستعملة في كل البحوث العلمية على اختلاف حقولها، والمتمثلة في: التصنيف، الترتيب، التجميع، المقارنة و النَّمْذَجَة، وغيرها من الوسائل التي تساعد على إنتاج فهم جديد للنص.

(**) Allard (M.), Elzière (M.), Gardin (J.C.), Hours (F.), Analyse conceptuelle du Coran sur carte perforées, Paris, La Haye,Mouton & Co., 1963, Tome1, Code, 110p ., Tome2 Commentaire, 187p.

(*) بين أيدينا معجمين عملا على هذه المهمة : الأول لمحمود فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطبعة نويد إسلام، قم، 1970. والثاني لحسين محمد فهمي الشافعي، الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار السلام، القاهرة، 2008. ما يضيفه المعجم الثاني هو فهرسته للحروف المستعملة في القرآن.